تمهيد

المبحث الأول

فى تدرج التفسير فى مرحلتيه

أولا ـ مرحلة الرواية :

نزل القرآن الكريم على نبى أمى وقوم أميين لا يملكون من وسائل التعبير إلا ألسنتهم ، ولا من أوعية المعرفة غير قلوبهم ، فلا كتابة ولا كتاب ، ولكنه اللسان الطلق الفصيح ، والقلب الواعى الذكور .

وكانت للعرب وقت نزول القرآن فنون من القول يذهبون فيها مذاهبهم ، وكانت هذه الفنون لا تكاد تتجاوز ضروبا من الوصف ، وأنواعا من الحكم ، وطائفة من الأخبار والأنساب . وكان كلامهم مشتملا على الحقيقة والمجاز ، والتصريح والكناية ، والإيجاز والإطناب . .

وجريا على سنة الله تعالى فى إرسال الرسل ، نزل القرآن الكريم بلغة العرب وعلى أساليبهم فى كلامهم : « **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم** »[1] فاستعمل القرآن الحقيقة والمجاز ، والتصريح والكناية ، والإيجاز والإطناب ، على نمط العرب فى كلامهم ، غير أن القرآن يعلو على غيره من الكلام العربى بمعانيه الرائعة التى افتن فى غير مذاهبهم ، ونزع منها إلى غير فنونهم ، تحقيقاً لاعجازه ولكونه : « **من لدن حكيم عليم** »[2] .

وكان طبيعياً أن يفهم النبى صلى الله عليه وسلم القرآن جملة وتفصيلا بعد أن تكفل الله تعالى له بالحفظ والبيان : « **إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه** »[3] .

وكان طبيعيا أن يفهم النبى صلى الله عليه وسلم القرآن جملة بالنسبة لظاهره وأحكامه ، أما فهمه تفصيلا ومعرفة دقائق باطنه بحيث لا يغيب عنهم شاردة ولا واردة ، فهذا غير ميسور لهم بمجرد معرفتهم للغة القرآن ، بل لابد لهم من البحث والنظر والرجوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم فيما يشكل عليهم فهمه ، لأنه عليه الصلاة والسلام عليه البيان كما أن عليه البلاغ ، وقد أخبر الله عن ذلك بقوله : « **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون** »[4] .

---

(١) إبراهيم : ٤ (٢) النمل : ٦

(٣) القيامة : ١٧ ــ ١٩ (٤) النحل : ٤٤

ولقد اختلف العلماء فى المقدار الذى فسره النبى صلى الله عليه وسلم : فمنهم من ذهب الى القول بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه كل معانى القرآن الكريم كما بين لهم ألفاظه ، وعلى رأس هؤلاء ابن تيمية[٥] : ومنهم من ذهب الى القول بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبين لأصحابه من معانى القرآن إلا القليل ، وعلى رأس هؤلاء الخوبى والسيوطى[٦] وكل من الفريقين يؤيد ما ذهب إليه بأدلة لا نطيل بذكرها ولا أظنها أدلة مسلمة .

والذى تميل إليه النفس : هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الكثير من معانى القرآن لأصحابه كما تشهد بذلك كتب الصحاح ، وأنه لم يبين لهم كل معانيه ، لأن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه ، ومنه ما يعلمه العلماء ، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها ، ومنه ما لا يعذر أحد فى جهالته كما صرح بذلك ابن عباس رضى الله عنهما فيما يرويه عنه ابن جرير الطبرى فى تفسيره (ج ١ ص ٢٥) قال : « التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير تعرفه العلماء ، وتفسير لا يعلمه إلا الله » .

وبدهى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفسر لهم ما يرجع فهمه إلى معرفة كلام العرب ، لأن القرآن نزل بلغتهم ،

---

(٥) انظر مقالة ابن تيمية فى مقدمته فى أصول التفسير ص ٥ .
(٦) انظر ما نقله السيوطى عن الخوبى فى الإتقان جـ ٢ ص ١٧٩ وما ارتضاه السيوطى فى الإتقان جـ ٢ ص ٢٧٩ .

ولم يفسر لهم ما تتبادر الأفهام الى معرفته ، وهو الذى لا يعذر أحد بجهله ، لأنه لا يخفى على أحد ولم يفسر لهم ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة ، وحقيقة الروح وغير ذلك من كل ما يجرى مجرى الغيوب التى لم يطلع الله عليها نبيه ، وانما فسر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض المغيبات التى أخفاها عنهم وأطلعه عليها وأمره ببيانها لهم ، وفسر لهم أيضا كثيرا مما يندرج تحت القسم الثالث ، وهو ما يعلمه العلماء ويرجع الى اجتهادهم ، كبيان المجمل ، وتخصيص العام ، وتقييد المطلق . . وما الى ذلك من كل ما خفى معناه والتبس المراد به .

وإذن فبعض ما يروى عن الصحابة فى التفسير مأخوذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعضه ـ وهو ما لم يتيسر لهم أخذه عنه وكان بحاجة إلى نظر واجتهاد ـ قالوا فيه برأيهم ، وأعملوا فيه نظرهم واجتهادهم ، مستعينين فى ذلك بما يعرفونه من أوضاع اللغة وأسرارها ، وعادات العرب وتقاليدها ، والحوادث التى نزلت بعض الآيات بشأنها ، وأحوال أهل الكتاب الذين كانوا فى جزيرة العرب وقت نزول القرآن الكريم ، ثم بقوة الفهم وسعة الادراك كما قال على رضى الله عنه ـ لما سئل : هل عندكم شىء من الوحى إلا ما فى كتاب الله ؟ ـ «لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ، ما أعلمه إلا فهما يعطيه الله رجلا فى القرآن . . . »[٧] .

ولقد اشتهر بالتفسير من الصحابة عدد قليل ، قالوا فى القرآن بما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة أو

---

(٧) البخارى ، فى باب : الجهاد جـ ٤ ص ٦٩ .

بالواسطة ، وبما شاهدوه من أسباب النزول ، وبما فتح الله به عليهم من طريق الرأى والاجتهاد ، كعلى ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وأُبَيّ بن كعب .

ثم جاء عصر التابعين ، فكان منهم من تصدى لتفسير القرآن الكريم ، فروى ما تجمع لديه من ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصحابة ، وزاد على ذلك برأيه واجتهاده بمقدار ما زاد من الغموض الذى كان يتزايد كلما بعد الناس عن عصر النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة .

ثم جاءت الطبقة التى تلى التابعين وروت عنهم ما قالوه فى التفسير ، وزادوا عليه - أيضا - برأيهم واجتهادهم بمقدار ما زاد من غموض . وهكذا ظل التفسير يتزايد طبقة بعد طبقة ، وتروى الطبقة التالية ما كان عند الطبقات التى سبقتها ، إلى أن جاءت مرحلة التدوين .

***

ثانياً - مرحلة التدوين :

وتبدأ هذه المرحلة من نهاية القرن الأول وبداية القرن الثانى ، وفيها خطا التفسير خطوات متعددة ، لكل منها سماتها ومميزاتها :

فأول خطوة بدأت : كانت مع ابتداء التدوين لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت أبواب الحديث متنوعة ، وكان التفسير بابا من هذه الأبواب ، ولم يفرد له تأليف خاص يفسر القرآن سورة سورة ، وآية آية ، بل وجد من العلماء من طوف فى الأمصار المختلفة ليجمع الحديث ، فجمع بجوار ذلك ما روى فى

الأمصار من تفسير منسوب الى النبى صلى الله عليه وسلم ، أو الى الصحابة ، أو الى التابعين . ومن هؤلاء : يزيد بن هارون السلمى المتوفى سنة ١١٧ هـ وشعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ هـ ، وسفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨ هـ . . وهؤلاء جميعاً كانوا من أئمة الحديث ، وكان جمعهم للتفسير جمعا لباب من أبواب الحديث ، ولم يكن جمعا للتفسير على أنه علم مستقل قائم بذاته .

ثم جاءت الخطوة الثانية : وفيها انفصل التفسير عن الحديث وأصبح علما قائما بنفسه ، فوضع التفسير لكل آية من القرآن ، ورتب ذلك على حسب ترتيب المصحف ، وتم هذا العمل على أيدى جماعة من العلماء منهم : ابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣ هـ ، وابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ ، وابن أبى حاتم المتوفى سنة ٣٢٧ هـ . . وكل هذه التفاسير مروية بالاسناد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى الصحابة والتابعين وتابعيهم ، وليس فيها شيء يذكر فى التفسير أكثر من التفسير المأثور اللهم إلا ابن جرير الطبرى فانه ذكر الأقوال ، ثم وجهها ورجح بعضها على بعض ، وزاد على ذلك الاعراب إن دعت اليه حاجة ، واستنبط الأحكام التى يمكن أن تؤخذ من النص القرآنى .

ثم جاءت الخطوة الثالثة : وفيها لم يخرج التفسير عن حدود التفسير بالمأثور ، ولكنه خرج عن طابعه المألوف من قبل ، وهو تدوين المأثورات بأسانيدها ، فوجدنا من العلماء من اختصروا الأسانيد ، ونقلوا الأقوال المأثورة عن المفسرين من أسلافهم دون

أن يسندوها لقائليها ، فدخل الوضع فى التفسير ، والتبس الصحيح بالعليل ، وكان هذا مبدأ ظهور الوضع فى التفسير وتطرق الروايات الاسرائيلية اليه .

ثم جاءت الخطوة الرابعة : وهى أوسع الخطا وأفسحها . . امتدت من العصر العباسى إلى يومنا الحاضر . . فبعد أن كان التفسير مقصورا على رواية ما نقل عن سلف هذه الأمة ، وجدناه يتجاوز بهذه الخطوة الى تدوين تفاسير اختلط فيها الفهم العقلى بالتفسير النقلى ، وكان ذلك على تدرج ملحوظ ، فقد بدأ أولا على هيئة محاولات فهم شخصى وترجيح بعض الأقوال على بعض ، وكان هذا أمراً مقبولا ما دام يرجع الجانب العقلى منه إلى حدود اللغة ، ودلالة الكلمات القرآنية . . ثم ظلت محاولات هذا الفهم الشخصى تزداد وتتضخم متأثرة بالمعارف المختلفة ، والعلوم المتنوعة ، والآراء المتشعبة ، والعقائد المتباينة ، حتى وجد من كتب التفسير ما يجمع أشياء كثيرة ، لا تكاد تتصل بالتفسير إلا عن بعد عظيم .

دونت علوم اللغة ، ودون النحو والصرف ، وترجمت كتب كثيرة من كتب الفلاسفة ، وتشعبت مذاهب الخلاف الفقهى والعقدى ، ودون فيها من الكتب ما شاء الله أن يدون ، وظهر التعصب المذهبى قائماً على قدمه وساقه فى العصر العباسى ، وقامت الفرق الإسلامية بنشر مذاهبها والدعوة لها . . وكان من نتيجة ذلك كله ، أن امتزجت كل هذه العلوم وما يتعلق بها من أبحاث بالتفسير حتى طغت عليه ، وغلب الجانب العقلى على الجانب النقلى ، وصار أظهر شىء فى هذه الكتب هو الناحية

العقلية ، وان كانت لا تخلو مع ذلك من منقول يتصل بأسباب النزول ، أو بغير ذلك من المأثور ، كما كان من نتيجته ـ أيضا ـ تحكم المعتقدات المذهبية فى عبارات القرآن تحكما كثيرا ما يخرج بالنص القرآنى عن معناه المراد . . وأخيرا وجدنا كل من برع فى فن من الفنون يغلب على تفسيره ـ بصورة واضحة ـ فنه الذى برع فيه : فالنحوى : أكبر همه الاعراب وسرد مسائل النحو وفروعه ، كأبى حيان فى تفسيره « البحر المحيط » .

وصاحب العلوم العقلية : جل عنايته بأقوال الحكماء والفلاسفة وذكر شبههم والرد عليها ، كالفخر الرازى فى تفسيره « مفاتيح الغيب » .

والفقيه : مبلغ همه واهتمامه مسائل الفقه وتفريعاتها وذكر أدلتها ، كالجصاص وأبى بكر بن العربى .

وصاحب التاريخ : يكثر من ذكر القصص وأخبار من سلف ، وكثيرا ما يخلط الصحيح منها بالأساطير والخرافات ، كما فى تفسير الثعلبى والخازن . .

وأصحاب المذاهب الدينية والمواجيد الصوفية : ركزوا فى تفاسيرهم على ما يهمهم من تأييد المذهب أو شطحات التصوف . . وهكذا فسر كل صاحب فن أو مذهب بما يتناسب مع فنه ، أو يشهد لمذهبه . .

ولقد استمرت هذه النزعة العلمية العقلية فى كتابة التفسير ، وراجت فى بعض العصور رواجا عظيما، كما راجت فى عصرنا الحاضر تفسيرات يريد أهلها من ورائها أن يحملوا آيات القرآن

كل العلوم ما ظهر منها ومالم يظهر ، كأن هذا ـ فيما يبدو ـ وجه من وجوه إعجاز القرآن وصلاحيته لأن يتمشى مع الزمن . وفى الحق أن هذا غلو منهم ، واسراف يخرج بالقرآن عن مقصده الذى نزل من أجله ، ويحيد به عن هدفه الذى يرمى إليه .

. . هذا ولا يفوتنا أن نذكر أنه قد وجد من العلماء من ضيق دائرة البحث فى التفسير ، فتكلم عن ناحية واحدة من نواحيه المتعددة ، كابن القيم ، الذى أفرد كتابا فى أقسام القرآن ، وأبى عبيدة ، الذى أفرد كتابا فى مجاز القرآن ، والراغب الأصفهانى ، الذى أفرد كتابا فى مفردات القرآن ، وأبى جعفر النحاس ، الذى أفرد كتاباً فى الناسخ والمنسوخ من القرآن ، وأبى الحسن الواحدى ، الذى أفرد كتابا فى أسباب نزول القرآن . . وغير ذلك من العلماء الذين قصدوا الى ناحية خاصة من نواحى القرآن وتناولوها بالدراسة والتأليف .

***